مذكرات خاصة

تجاربي في الحيـــــــاة*

بقلم الاستاذ أسعد لطفي حسن

— ٢ —

العائلة الجديدة : عمي وزوجته وأبوها وأمها وأخي وأنا وعجوز شمطاء تخدمنا . ولا أنكر أني أحسست بريح الشقاء والآلام ، ومع صغر سني لم تتركني ملاحظة ، فان عمي ترك أمورنا بين رحمة صهره وتصاريفه ، وهذا كان رجلا جشعاً ، دأبه جمع المال ، وغرامه في تكديسه ، فأشار بارسالنا إلى (الكتاب) وزيادة في التظاهر بالعناية بنا تفضل ورافقنا لتوصية الفقيه .

توجهنا إلى (الكتاب) وإذا به قاعة فسيحة مرتفعة الجوانب ، ونوافذها الصغيرة قريبة من سقفها الذي يوجد به منور خلو من الزجاج تهب منه الرياح بما تحمله من الأتربة والرمال، ويتساقط منه المطر في وقت الشتاء حتى تتبرك المياه، وتتحول الأرض إلى أوحال تتراكم وتصعد منها الروائح الكريهة ؛ وتوجد بجوانب حوائطه مقاعد خشبية للطلبة الذين يدفعون في كل يوم خميس قرشاً كاملا ، وفي وسطه حصير ممزقة لمن يدفع نصف القرش ! وقد وضعت دكة في ناحية منه يجلس عليها الفقيه ، وفي مواجهتها يجلس مساعده العريف ؛ وكان الفقيه في الحلقة الخامسة من عمره ، والعريف ابن الثلاثين .

رحب بنا العريف ووعد بالعناية بنا ، ووعده الحاج حسين بما يسره ويرضيه ، وانصرف وجلسنا على أحد المقاعد، لأننا سندفع القرش ، وتسلمنا لوحاً من الصفيح الأبيض اللامع ، وأعطى كل منا محبرة من الصيني، وقلما من الغاب .

والحق أن جميع صبية المكتب أظهروا لنا، من صنوف الترحيب والتكريم، ما شجعنا على دوام البقاء به واستمرار التوجه اليه، وقد كرمنا الفقيه باعطائنا الدرس بنفسه، فسطر لنا الحروف الأبجدية ، غير أن غوغاء المذاكرة العامة ومختلف المحفوظات التي كانت من الطلبة، كانت تشغل البال ، وتوجه الفكر لالتقاط ما كنت أسمعه ؛ وبينا كنت أحفظ الدرس من اللوح ، كنت أستمع لقائل «ألف لا شيء عليها، والباء نقطة من تحتها » وآخر يتلو «ويل لكل همزة لمزة » وثالث يجود فيما حفظه «ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم» .

(*) راجع القسم الاول من هذا الموضوع في الجزء التاسع من (المعرفة)

انصرمت مدة تقرب من الثلاثة أشهر ، وتمكنت من كتابة اللوح، وإذا بالفقيه يطلب منى (الصرافة) ، وما هى الصرافة؟ هى الاعلان بأنى تجاوزت مرحلة من التعليم لينال بعضاً من المنح، وحقاً لقد منحه عمى قطعة من النقود ذات قيمة العشرة قروش؛ فتناول الفقيه اللوح منى وزخرفه بجميل ما يتقنه من النقوش، ورده إلى فحملته فرحاً مسروراً ؛ وشعرت بأنى عالم إذ بدأت أكتب بعض السور الصغيرة وأحفظها ؛ وكان يساعدنى على سرعة الحفظ رغبتى فى (صرافة) جديدة.

فى هذا (الكتاب) كان يوجد عدد كبير من الطلاب من مختلف الأعمار ، وكانت سيادة الفقيه وسطوته تجعلهم جميعاً فى هدوء وسكينة ؛ وما كنت تجده يوماً يخلو من شكاية والدية، فترى الطالب المشكو فى حقه ملقى على ظهره، وقدماه فى (الفلقة)، وسيدنا الفقيه يتمطع ويتحفه بعصاه الرفيعة، وكانت أناته تبعث فى قلوبنا رهبة ورعباً ؛ ولذا أبعدنا الله بفضله وكرمه عن هذا الموقف الرهيب.

وفى هذا المعهد ملاحظات شتى : أولها العناية بحفظ القرآن ، والسعادة التامة، والغبطة الوافرة لمن تمكن من حفظه وتجويده ، ومن وراء ذلك التمسك بالدين ، فقد كنت تجد من الفقيه قسوة وشدة مع الطلبة صغيرهم وكبيرهم إذا أحس بتقصير واحد منهم عن تأدية الصلاة، ولا أنسى أنه كان حريصاً جد الحرص على تعويد الطلبة على عدم الحلف ، وأذكر أنه عاقب طالباً بحرمانه من أدم الطعام أسبوعاً لأنه كذب عليه مرة ، وكانت له ـ رحمة الله عليه ـ طرائق حكيمة فى التربية، إذ كان يكلمنا ترك ألواحنا ومحابرنا فى مواضعها ليعلم مبلغ الأمانة منا واعتداء أحدنا على حقوق الآخر ؛ إلا أنه لفقره وقلة موارده، كان يجالسنا وقت الغداء ، ويستخدم سلطانه فى جمع الأطعمة ، وله ما يختار من غير منازعة؛ وكان لا يترك فرصة تمر دون معرفة ما بأيدينا من ملاليم، وكان يبيعنا بعض أصناف الحلوى بواسطة قريب له يقتسم الأرباح معه ؛ ومع أنه كان رقيق الحال ، فلم يتأخر عن سداد ما كان يطلب منه ، وكان فى مجموعه عاقلا رزيناً مهاباً محترماً ، وكانت له خلة الاهتمام بتلاميذه ، إذ كان يراقبهم فى أيام العطلة مراقبة عملية بالمرور فى أزقة الحى وحواريه ، حتى إذا شاهد واحداً منهم فى حال لا يرتضيه نبهه إليه ونصحه ، ثم ذكره بين أقرانه بما رآه عليه ليتعظ الكل فى وقت واحد .

ولا يفوتنى أن أذكره بواسع الرحمات ، إذ كان شديد العناية بكرامته كبير الاهتمام بعزة نفسه ، فقد شكاه أحد الطلبة لأبيه لأنه كان وحيده ، وقد قصر فى واجبه فضربه الفقيه وكبر ذلك على الوالد ، وحضر إليه فى أشد سور الغضب ، وبدأه باللوم وأغرق فى القول فلم يأبه لقوله وتركه فى حدته غير مكترث بتهديده أو متلفت لوعيده ، حتى إذا ما هدأت ثورته وتمكن من صوابه قال له الفقيه: (بينى وبينك وابنك أن تحجبه عنى) فلما هم بسحب ولده بكى الولد وقال لوالده : أنا أفضل البقاء ؛ فلم يرض الفقيه إلا بعد ترضية من أبيه .

أراد الله وتمكنت من حفظ القرآن بالكتاب وجاء دور المدرسة وتوجهت وأخي إليها وكانت المصروفات المقررة لها عشرة قروش في الشهر، ولما أن علم الناظر أننا يتيمان أراد معاقبة أحدنا منها، فكبر ذلك على عمي، وخشي المعرة وملامة الناس، وأصر على دفعها لنا الاثنين.

أين هذا من الوقت الحاضر والآباء يئنون من فداحتها، وهي في الواقع تزيد مائة مرة عما كانت عليه؟ واليتامى لا يجدون الرفق والرحمة وربما أضاعت عليهم الحاجة والفاقة ثمرة التعليم أو اقتصروا طريقه وسعوا إلى التوظف، وقبر ذكائهم وحرمت عقولهم من التحصيل.

دخلت المدرسة، وأنا ابن ست سنوات، فكنت كالعصفور بين البواشق، إذ كان بها من يزيد عمره عن العشرين؛ وكان الطلبة يرتدون ملابس خاصة — جاكتة مقفولة — كانت تسمى (الفرتيكة) وبنطلون، ويوجد حزام من قماش لونه أحمر مخطط بالأبيض وله قفل من نحاس؛ فكنت في هذا الزي موضع الانظار.

وفي المدرسة التي كان موقعها في وسط المزارع (وهي في مكانها إلى الآن) كان الفارق كبيراً بينها وبين (الكتاب) إذ هي مبنية على طراز صحي، خالية الجوانب تكتنفها الشمس، ويتخللها الهواء؛ وفي ناحيتها البحرية حديقة واسعة، وبها استعداد كامل حيث يوجد بها معمل للكيمياء والطبيعة، وبها مسجد وأماكن للوضوء، ولها حوشان فسيحان جداً، وكان على رأسها ناظر كريم، وقور غيور على مصلحة الطلبة، جمع بين الهوادة واللين والشدة والقسوة، لم يترك لكل طالب صغيرة أو كبيرة إلا أحصاها له أو عليه، وقد أخذ مكانه بين الكبراء والعظماء، إذ كان محترماً في كل الأوساط، وكان محبوباً عند المدرسين لاهتمامه بهم واحترامه لهم؛ وكنا نراه كل وقت يمر بأماكن التدريس ويشرف على المعلمين، ويقضي وقتاً غير قصير في مناقشة الطلبة، وكان مهيب الجانب، وقد كان من سننه إذا علم بذكاء طالب منحه هدية تشجعه وتبعث في نفوس زملائه الغيرة والتنافس، ولا يقصر عن الاهتمام بتلاميذه فقد أوجد بينهم الرغبة في الموسيقى والتمثيل، وأنشأ من بينهم فرقاً اقتنوا كل نوع منها؛ وفي نهاية كل عام مدرسي يدعو آباء التلاميذ وعلية القوم وعظماءهم لمشاهدة تمثيل رواية أدبية أخلاقية تهذيبية تصدح في خلال أدوارها الموسيقى. في ذلك العهد الذي مضى عليه الأربعون عاماً كانت الفنون الجميلة موضع الاهتمام والعناية ولم تكن هناك ضجة حولها كما كانت الرياضة، وأذكر أنها كانت ميادين الأدب، إذ كنا نتعلم الحركات على نظم الشعر الأدبية، وكان الطالب يحفظ أبيات الشعر الحماسية.

أما من ناحية الدروس والتدريس، فقد كانت اللغة العربية صاحبة السيادة، ولها في كل فرع القدح المعلى والسهم الصائب؛ هذا مع العناية بحسن تدريس اللغتين: الفرنسية والانجليزية، وكان بقية من الموظفين الأتراك يقومون بأعمال الضباط، فكان تعليم اللغة التركية اختيارياً.

في ذلك العهد كان على رأس وزارة المعارف رجل مصر العظيم المرحوم علي مبارك باشا

وقد حضر لزيارة مدرستنا بطنطا ؛ فكان يوم عيد وفرح احس كل من بالمدرسة بالسرور والحبور، وماوطأت قدماه عتبة المدرسة حتى عزفت موسيقى المدرسة بألحانها ونغماتها، واستقبله الطلبة بالهتاف، وقد قضى فى زيارة فصول المدرسة يوماً بأكمله، إذ لم يترك فصلا قبل أن يقضى فيه ساعة كاملة بين مناقشة الطلبة وسؤالهم ونصحهم ، ولما لم يستوف بقية الفصول أعاد الكرة فى اليوم التالى. وقبل مبارحة المدرسة اصطف التلاميذ فى حوشها ، وإذا بالوزير العظيم يستحضر حقيبة، وضعها بين يديه، ونادى من أعجبته أجوبتهم وذكاؤهم، وأهدى إليهم جوائز علمية كتب عليها بخط يده مايذكى فى أفئدتهم نار الغيرة والحمية والاجتهاد .

كان من بين جلائل أعماله أن حان وقت الصلاة فى إحدى فرص الفراغ ، وسمع المؤذن يعلن إقامة الصلاة ، فسارع إلى مسجد المدرسة، وخلع ثيابه، وتوضأ ، ووقف بين الصفوف، وصلى الامام وهو خلفه ، وأتم صلاته خاشعاً لله خاضعاً لقوته ، وقد خلع رداء الغرور بالدنيا ، ولم ينس الله بوظيفته ، فكان أسوة حسنة وقدوة صالحة، أفسح الله له جناته وضاعف أجره وثوابه وحسناته .

وأحسن مايذكر لذلك المصلح العظيم من الأثر الخالد ، والذكر الحميد: أن طالبا ختم الصلاة بتلاوة بعض آيات من القرآن ، وكان رخيم الصوت مجيد القراءة، حسن التجويد، فأعجب به، وسأل عنه، فاذا به يتيم الأبوين، فقربه إليه ونفحه عشرة جنيهات وقرر تعليمه على نفقته الخاصة فى كل أدوار التعليم، وكان ماقرر، وهو الآن من كبار رجال القضاء يذكره بالرحمة والغفران.

انقضت السنة الاولى ، وفزت فيها بالنجاح ، وبدأت العطلة الدراسية ، وكانت فى أشهر رجب وشعبان ورمضان، فوجهنى عمى إلى الجامع الأحمدى لأعادة حفظ القرآن ودراسة بعض الدروس الدينية، وهناك لم توجد أية رابطة بين الطالب والمدرسين ، إذ كانت حلقات الدروس هى التى تجمع بينهم .

كان فى ذلك المعهد الكبير حلقات للتدريس ، وكان إقبال المستمعين كبيرا ، وبتلهف ، وكان من بين المدرسين من فطاحل العلماء ورجال الأدب والدين كثيرون، وهؤلاء زهدوا فى الدنيا إلا قليلا من صدقات ذوى البر الذين أوقفوا لها العقارات والاملاك ، ومن هؤلاء كنت تجد من يقضى طوال أيامه فى إفادة الناس واستفادتهم، وكان فضل العلم وأثره كبيرا جدا إذ كانوا اهل تقوى وورع تتجلى وجوههم بنور الايمان واليقين وهؤلاء افسح صدورهم للبحث والمناقشة والسؤال ؛ وكانوا بعملهم هذا يحافظون على سمعة المعهد ؛ وقد امتاز المعهد الأحمدى قدما بتحفيظ القرآن وتجويده ، فكان لشيوخ القراءة مكانتهم ومهابتهم يسعى اليهم من أقصى البلاد ؛ وقراءة القرآن فن واسع عنى الأقدمون به ، خصوصا القراآت وما وعى منها ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام نقل عنه كل قراءة بما سمعها ، ففى المعهد الأحمدى من فطاحل

علماء القراآت عدد كبير ؛ ولم تكن مهمتي أن أحفظ على هؤلاء ماحفظت بل كنت أحضر درسهم للاستماع ؛ وأما ماكنت أسعى اليه دائما فهو درس العبادات ؛ وذلك لأن ماكان يدرس لنا بالمدرسة كان موجزا لتأدية الواجب الديني فقط .

ولما انقضى شهران من الأجازة السنوية أقبل شهر رمضان ، وكنت قاربت على الثامنة من عمري، وحفظني الله من نزعة الافطار ، وصمت نهاره، وكرمني الله بالمحافظة على صلاة الجماعة للتراويح ؛ أقول هذا تحدثا بنعمة الله ، وأسفا وحسرة على ما نحن فيه ! إذ كان شهر رمضان من أقدس مظاهر الحياة الاسلامية، فيهتم المسلمون بقدومه ويتأهبون لاستقباله بكل وسائل التكريم، فاذا ماهل هلاله راجت سوق قراءة القرآن فتعمر البيوت والمساجد بتلاوته ، ويتبارى الأغنياء في بر الفقراء، ويفتحون أبواب منازلهم للترحاب بهم حيث يؤمونها لاستماع القرآن ، وكانت منافسة كريمة طيبة في إيجاد المقرئين، وكان المسلمون لايعرفون المقاهي والمشارب العامة، بل يجتمعون زرافات ووحدانا في منازل الكبراء، يقضون ليلهم في الخير ونهارهم في الصوم، فكان الخير والبركة .

أما المساجد فهي مورد العابدين لايأتي وقت الصلاة إلا والجميع كبيرهم وصغيرهم وقوفا بين يدي الله عابدين عاكفين يعمرون مساجده ، وهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، تسمع أصواتهم يضرعون إلى الله ويسألونه النعمة والفضل والمغفرة ، وللدين سيادته ولله عبادته وللناس الهداية والتوفيق ؛ ياحسرتا على ما فرطنا في جنب الله، فقد أضعنا الدين وهجرنا اليقين ونسينا الله فأنسانا أنفسنا وحلت بنا الرزايا والبلايا والمحن .

انقضى شهر رمضان وأعقبه العيد ، ووالله، كنت أشعر بالعيد لا بلبس الجديد وأكل القديد، ولكن بتزاور المسلمين ولقائهم ببعضهم اخوانا متقابلين ؛ والآن وقد يجيء رمضان وينقضي العيد، ولا من يعرف لذلك خبرا .

وعدت إلى المدرسة في السنة الثانية ، وقد كان في بدء افتتاحها فجيعتي بصديق لي يقرب من عمري إذ قضى نحبه غرقا ؛ فقد سافر إلى قريته ، وكان بها ترعة يتعلم السباحة فيها ، فخرج اليها يوما ، كانت مياهها غزيرة ، فتغلبت عليه ، ووافته منيته ، فانتشل جثة هامدة، ودفن في التراب، وقد كان شعلة ذكاء وأملا يرجى ، ولكن قضاء الله محتوم لامفر منه، وقد قص علي قصته أخ له أكبر منه، وفهمت أن الطبيعة في القرى تبسط سلطانها، والمناظر الجميلة الطبيعية تبهج النفوس ، وتنعش الأفئدة والمروج حافلة بخضرتها السندسية والأشجار مثقلة بثمارها المدلاة الشهية ، كان ذلك الضحية يقضي أوقاته على حافة هدير من الماء هادئا ساكنا في عزلة عن الناس، حتى إذا جاء وقت الظهيرة نزل إلى الترعة ليتعلم السباحة فمات شهيد غايته الشريفة؟

أسعد لطفي حسن